مجلة رفوف – مخبر المخطوطات – جامعة أدرار – الجزائر ـــــــــــــــــ المجلد: 11 / العـدد:02 (جويلية 2023) ص 626– 646
ISSN: 2335-1381 EISSN: 2602-5949 Legal Deposit: 2013-6352

شهادة جبل نفوس على العصر ما بين ق2هـ/8م- ق9هـ/15م (من خلال المدوّنة الاستعرابيّة)

Nefusa Mountain's Testimony on the Age Between 2 AH / 8 AD - 9 AH / 15 AD (Through the Arabism Corpus)

نجاة الطاهر قرفال
Najet Taher Guerfel
المعهد العالي للغات، جامعة قابس (تونس)، guerfeell@hotmail.fr

تاريخ الاستلام: 2023/02/23	تاريخ القبول: 2023/06/30	تاريخ النشر: 2023/07/13

الملخص: أن يلفت جبل نفوسة عناية ذوي الشغف المعرفيّ المعماريّ والأثريّ، الأدبيّ والفنّيّ، اللغويّ واللهجيّ، الدينيّ والثقافيّ، الاجتماعيّ والاقتصاديّ، التاريخيّ والسياسيّ، أمرٌ بالغ الأهمّيّة. إذ انجذاب غير أهل الملّة الإسلاميّة من بحّاثة أوروبّا، مثلا، من المستعربين، المشتغلين بالعربيّة لغة وأدبا وحضارة، يضاعف قيمة البحث لكونه يسفر عن نظرة مغايرة، خارجيّة أجنبيّة. فيكون ترحيل معرفة مخصوصة، من الضفّة الجنوبيّة للمتوسّط إلى ضفّته الشماليّة. إنّه ترحيل معرفيّ فاتح لبوّابات التعارف والتثاقف والتعايش السلميّ لو أنّ إرادة الباحث تتغيّى المعرفة لذاتها.

يسعى هذا البحث إلى اختبار هذه الأطروحة من خلال النظر في المدوّنة الاستعرابيّة ممثّلة هنا في بعض أعمال كلّ من إميل مسكراي، وأدولف مُتِلَنسكي، وريني باصّي. تقوم الخطّة، بين المقدّمة والخاتمة، على المشهد الإناسيّ، فالمشهد السياسيّ، فالمشهد العلميّ.

الكلمات المفتاحية: نفّوسة، العلم، المستعربون، الشهادة، العصر.

Abstract: The engagement of passionate individuals in the fields of architectural, historical, literary, artistic, linguistic, dialectal, religious, cultural, social, economic, historical, and political studies, with the aim of directing their attention towards a vast reservoir of knowledge, assumes paramount significance. The inclusion of non-Muslim scholars, particularly Arabists engrossed in the study of Arabic language, literature, and civilization, enriches the research enterprise by offering a distinctive, external, and foreign perspective. Consequently, it materializes as the migration of specialized knowledge, traversing from the southern shores of the Mediterranean to its northern counterparts. This intellectual migration, imbued with enlightenment, paves the way for acquaintanceship, comprehension, and harmonious coexistence, contingent upon the researcher's unwavering commitment to the pursuit of knowledge itself. The present study endeavors to empirically examine and scrutinize this thesis through an exploration of the Arabist blog, epitomized by the seminal works of Emil Maskuray, Adolf Mutilenski, and Rene Bassi. The methodology employed, situated between the introductory and concluding sections, revolves around the realms of personal, political, and scientific domains.

Keywords : Nefusa, Science, Arabists, Testimony, Age.

المؤلف المرسل: نجاة الطاهر قرفال، **الإيميل**: guerfeell@hotmail.fr

1. مقدمة:

اخترق جبل نفوسة جملة من الكتابات العربيّة وغير العربيّة. فتأكّدت قيمته وفائدة تسريح الأنظار فيه فضاء جغرافيّا وحضورا تنظيميّا وأبعادا حضاريّة تتقاطع فيها شتّى المجالات. من هنا كان البحث في دوافع انجذاب غير أهل الملّة الإسلاميّة من بحّاثة أوروبّا، مثلا، من أولئك المشتغلين بالعربيّة لغة وأدبا وحضارة ممّن يطلق عليهم لقب المستعربين، ذا أثر كبير في التعرّف على شهادة جبل نفوسة على عصره من زاوية نظر مختلفة، تمثّل، أوّلا، وجهة نظر خارجيّة أجنبيّة هي لسدنة الاحتلال الأوروبيّ والمشرّعين له. وتمثّل، ثانيا، عملا معرفيّا يسفر عن ترحيل معرفة مخصوصة مترعة بالتنوّع والمختلف، من ضفّة المتوسّط الجنوبيّة إلى ضفّته الشماليّة. ومن ثمّ يفترض انفتاح بوّابات التعارف والتثاقف والتعايش السلميّ لو أنّ إرادة الباحث تتغيّى المعرفة لذاتها موضوعيّةً وحيادا، وتستهدف الإفادة أمانةً وإنصافا. وأيّا كانت الدوافع خفيّة أم ظاهرة فإنّ حضورا لافتا كان لجبل نفوسة وحيّزا مهمّا في كتابات من خارج الملّة الإسلاميّة. وكان له، كذلك، ملامحه الحضاريّة التي لا يخطئها المطّلع على تلك الكتابات.

تسعى ورقة البحث هذه إلى اختبار هذه الأطروحة من خلال النظر في المدوّنة الاستعرابيّة ممثّلة هنا في بعض أعمال كلّ من إميل مسكراي(Masqueray Émile)(1843-1894)، وأدولف مُتِلَنسكي(Motylinski, Adolphe de Calassanti) (1854-1907)، وريني باصّي(Basset, René)(1855-1924) وغيرهم. وتعتمد، لتحقيق ذلك خطّة بحثيّة تقوم، ما بين المقدّمة والخاتمة، على ثلاثة أقسام ذات تفريعات داخليّة: أوّلا: المشهد الإناسيّ: التنظيمات والممارسات والاعتقادات، وثانيا: المشهد السياسيّ: الإمامة والمبادئ، وثالثا: المشهد العلميّ: العلماء والمصنّفات.

أمّا الإشكاليّة فتنعقد حول السؤال التالي: إلى أيّ حدّ يمكن أن يكون هؤلاء المستعربون قد تمثّلوا حقّ التمثّل حضور نفوسة حضاريّا؟

2. المشهد الإناسيّ:

تتواشج المشاهد باختلاف معالمها للبرهنة على بيئة حضر فيها المشهد الإناسيّ، نسبة إلى الإناسة أو علم الإنسان أو الأنتروبولوجيا(Anthropology)، ممثّلا في جملة من التنظيمات والممارسات والاعتقادات، موصولا بكلّ من المشهدين: السياسيّ من خلال الإمامة والمبادئ، والمشهد العلميّ الذي تؤثّثه منازل العلماء وأخلاقهم ومصنّفاتهم. وأُولى مرامي النظر تتّجه نحو الأصول المكوّنة للحضور البشريّ في جبل نفوسة. وقد أحال المستعرب مسكراي إميل (Masqueray, Émile)(1843-1894)، في بيان أصول نفوسة إلى ابن خلدون: "... على مسافة ثلاثة أيّام من وسط طرابلس(Trablès)...، فيه نجد نفوسيّين، ومغراوة، وبعض العائلات السدراتيّة..."(

Masqueray, 1879, pp. 47-48). وهي إحالة غير دقيقة إذا ما قورنت بما جاء في **المقدّمة**(ابن خلدون، 1988، ص149). ويبحث هنري دوفريي(Duveyrier, Henri)(1840-1892) في هذه الأصول. فيقول: "ينتمي سكّان جبل نفوسة الأصليّون، وكذلك سكّان كلّ المنطقة الشماليّة لإفريقيا، إلى العرق البربريّ. بعد الغزو الإسلاميّ، بعض القبائل العربيّة استقرّت بين الأمازيغ، أو البربر. ولكن لا يبدو أنّ الاختلاط كان كبيرا بين العرقين. ذلك أنّها مازالت تتميّز في القرية ذاتها حينا بالنوع البدنيّ، وكذلك بالدين واللغة..." (Duveyrier, Nouvelles annales des voyages, 1861, p. 130)

لقد زخر جبل نفوسة، وفقا لما توفّر في الكتابات الاستعرابيّة، بحضور بشريّ كثير التحرّك شديد الحيويّة. وقد دلّت عليه جملة التنظيمات الإداريّة التي عرفتها المنطقة. وكذلك الممارسات المعيشيّة التي صحبت الحضور الاجتماعيّ فتولّدت عنه العلاقات الاجتماعيّة، وكذلك المسائل الاعتقاديّة.

1.2. التنظيمات:

ونعني بها التنظيمات الإداريّة التي ضمنت للمجتمع النفوسيّ التكيّف في البيئة وبين الأجناس. وأمّا تنظيم العزّابة في جبل نفوسة فلم يتناوله المستعربون بالدراسة، فيما بلغ إليه علمنا، إلّا عند دراستهم لإباضيّة بني مزاب(قرفال، 2019، 18) وما جاورها من مدن انتشر فيها المذهب الإباضيّ مثل غرداية.

يقدّم المستعرب الفرنسيّ مُتِلَنسكي(Motylinski, Adolphe de Calassanti) (1854-1907)، الذي ذاع صيته في مجال الدراسات الإباضيّة أعلاما ومعالم ومعارف، يقدّم مسحا مهمّا للدوائر التنظيميّة المسمّاة بالمديريّات والممثّلة لجغرافيّة جبل نفوسة السكّانيّة. فيقول: "ينقسم جبل نفوس إلى ثلاث مديريّات: إفران ولالوت(Lalout)، وتسمّى كذلك بنالوت. وفساطو(Fossato)" (Motylinski A. d., Notes historiques sur le Mzab, Alger, 1885, p. 3). ثمّ يفصّل القول في مكوّنات كلّ من هذه المديريّات الثلاث مميّزا بين مراكزها والطبيعة البشريّة المكوّنة لها. وينبغي أن نشير هنا إلى أنّ أسماء الأماكن قد يلحقها تغيير ما بسبب الفعل الترجميّ المضاعف. فنحن بصدد ترجمة نصّ فرنسيّ وفّر أسماء مترجَمة سلفا. إنّ ترجمة المترجَم قد لا تخلو من مزالق. فهذا الأمر من الخطورة بمكان. إذ أنّ غياب الاسم الأصليّ أو تغييبه يسفر عن إلغاء المسمّى وضياعه. وقد تفطّن مُتِلَنسكي نفسه إلى ذلك حين قال: "هذه الأسماء التي ينقلها نُسّاخ أجانب عن البلاد، تصبح، غالبا، من غير الممكن التعرّف عليها"(Motylinski A. d., Notes historiques sur le Mzab, Alger, 1885, p. 5) .

ومهما يكن من أمر هذه التغيّرات الممكنة الوقوع أثناء ترجمة الأسماء والمؤثّرة سلبا في ترحيل المعرفة الصحيحة إلى الآخر، فإنّ أهلها لا يخطئونها البتّة، وهم إلى ذلك مدعوّون إلى بذل الجهد فيها استقصاء ومراجعة

وتصويبا، ولا يخفى على ذي نظر ما لعلم المراجعات الآخذ في الانتشار، اليوم، من دور في الكشف عن المغالطات وبيان الحقائق.

1.1.2. مديريّة إفران: ميّز مُتِلَنسكي في مديريّة إفران بين مراكزها معرّفا بقصورها من جهة سكّانها إباضيّين وسنّيّين. ولعلّه من المفيد أن نشير هنا إلى أنّ هذا التقسيم يبدو خِلوا من المنطق والإقناع لكونه يجعل التمييز مبنيّا على اعتبار السنّة عند من أطلق عليهم صفة السنّيّة، كما لو كان غيرهم غير معتبِرين لها، أي السنّة، في مذهبهم. وكان عليه من باب الإنصاف والتصنيف الدقيق أن يذكر الانتماءات المذهبيّة الأخرى مثل المالكيّة والحنفيّة والشافعيّة والحنبليّة. وكان عليه في حال عدم التعرّف على الانتماءات المذهبيّة عند غير الإباضيّة أن يكتفي بكلمة "غيرهم" أو "من ليسوا بإباضيّة".

ففي مديريّة إفران: القصر اللوتيّ والقصر الفوقيّ وبلاد الترك: يسكنها الترك، والقلعة(700 عائلة كلّها إباضيّة)، وتمزرايت(150 عائلة كلّها إباضيّة)، وترغمّة(210 عائلة إباضيّة و10 سنّيّة)... وقصبة بو ساق(35 عائلة كلّها إباضيّة)(Motylinski A. d., Notes historiques sur le Mzab, Alger, 1885, p. 3) . نسجّل هنا عناية فائقة من لدن متلنسكي بضبط عدد العائلة في كلّ محلّة وتمييز الإباضيّ فيها من السنّيّ. ولهذا قيمته العلميّة في الكشف عن طبيعة المشهد الاجتماعيّ وإمكان تتبّع تطوّراته واستشراف مآلاته والكيفيّات الكفيلة باستدراجه أو اختراقه أو، على الأقلّ، تقدير تحرّكاته والمخاطر التي يمكن أن يمثّلها بالنسبة إلى الاحتلال ورموزه.

ثمّ ينخرط متلنسكيّ في سرد أسماء القصور الثلاثة في القربة(Guerbat): قصر المنيين وقصر القرادين وقصر المشوشين(180 عائلة كلّها إباضيّة)، ليسرد في مرحلة ثانية أسماء المراكز التي تسكنها العائلات السنّيّة من واد الرصاص وواد الروميّة وأراضي الخليفيّة والرياينة. وليس الناظر في هذه الأعداد بمخطئ تفوّق العنصر الإباضيّ عددا في مديريّة إفران. ولهذا دلالته الاجتماعيّة وقيمته العمرانيّة وأبعاده الحضاريّة.

2.1.2. مديريّة فساطو: أمّا مراكزها فتقسّم كالتالي: في أراضي فساطو: جدّو، مركز التحكّم(600 عائلة كلّها إباضيّة)، وترميصة(50)، وتالات نوميرال(80).... جيطال(35 إباضيّة و35 سنّيّة)" (Motylinski A. d., Notes historiques sur le Mzab, Alger, 1885, p. 3). وكذا الشأن بالنسبة إلى أراضي رحيبات...-في أراضي زنتان...- في أراضي رجبان..." (Motylinski A. d., Notes historiques sur le Mzab, Alger, 1885, p. 4). والملاحظة ذاتها نسوقها هنا في تفوّق العائلات الإباضيّة في منطقة فساطو على نظيراتها من غير الإباضيّة من حيث العدد. وهذا الضبط من شأنه أن يجعل البحّاثة من المستعربين على بيّنة من نوع النظم الاجتماعيّة التي تصطبغ بها المنطقة، لاسيّما وأنّ هؤلاء المستعربين المكلّفين من لدن سلطات الاحتلال لاختراق

المجتمعات ورصد الآثار والتحرّكات يعرفون العربيّة وربّما يجيدونها نطقا وكتابة. إذ بذلك تمكّنوا من نقل الكثير من المعارف والمآثر والمخطوطات من البلدان الواقعة تحت الاحتلال الفرنسيّ وغيره. وقد مثّل جبل نفّوسة لخصوصيّة ساكنيه المذهبيّة أحد مراكز الاهتمام عندهم.

3.1.2. مديريّة لالوت: أولى مراكزها في أراضي الحوامد: لالوت مركز التحكّم(1600 عائلة كلّها إباضيّة)، ووزّان(240 عائلة كلّها إباضيّة، وأولاد محمود(100 عائلة إباضيّة و70 سنّيّة)... وفي أراضي الحرابة: جريجان(90 عائلة كلّها إباضيّة)... وتاميزين(220)... وكاباو(200)... (Motylinski A. d., Notes historiques sur le Mzab, Alger, 1885, p. 5). لنا أن نتساءل ها هنا: أكان من اليسير ضبط هذه الأعداد دون أن يكون هناك اهتمام خاصّ بضبط تطوّر العنصر الإباضيّ في المنطقة؟ وليس عجيبا أن يكون مُتِلَنسكي نفسه متوجّسا خيفة من ردّ هذه المعلومات عليه والمطالبة بمصادره فيها. لذلك سارع ببيان روافده في تلقّي المعلومة، لا بل في مراجعتها أيضا. يقول: "هذه الإرشادات القائمة على الأرقام، يمكن ألّا تكون شديدة الدقّة، وفّرها طالب من نفوسة(Nefouça) مستقرّ في غرداية، وراجعها طلبة آخرون من لالوت وفساطو..." (Motylinski A. d., Notes historiques sur le Mzab, Alger, 1885, p. 4).

ثمّ يجمل مُتِلَنسكي هذه الأعداد المفصّلة ليقول: "وفي الجملة 7000 عائلة تنتمي إلى المذهب الإباضيّ" (Motylinski A. d., Notes historiques sur le Mzab, Alger, 1885, p. 4). وقد قاد البحث إلى عمل آخر في الغرض قدّمه هنري دوفريي مع اختلافات تسمح بقيام عمل مقارنيّ ليس هنا مجاله. قدّم جدولا خرج منه بجملة نتائج منها: "عدد البالغين في فسّاطو هو 7.269 بينما يبلغ عددهم في نالوت 6.256، أي بمجموع 13.524 بالغا في جبل نفوسة. أمّا نسبة العنصر البربريّ بالنسبة إلى العنصر العربيّ فتتساوى تقريبا" (Duveyrier, Nouvelles annales des voyages, 1861, p. 135)

تكمن أهمّيّة جغرافيّة المكان في ضبط أسماء الأماكن التي تتركّز فيها المجموعات البشريّة. فتتجلّى طريقة التوزيع والكثافة السكّانيّة. فالحاجة إلى إجراء مسح اجتماعيّ لفهم طبيعة التركيبة البشريّة في ليبيا، مثلا، لا يمكن أن تُقضى ما لم يستوعب الباحث طبيعة الحياة التي تتراوح بين الترحّل والاستقرار بحسب نوعيّة السكّان. ومن الأعمال الاستعرابيّة المهمّة، كذلك، في هذا المجال ما دوّنه الإيطاليّ هنريكو دي أغسطيني(Agostini, Enrico De) في كتابه: **سكّان ليبيا**(***Libya – Population of Tripolitania***)، الذي ثمّنه مترجمه حين قال: "نهض بهذا العمل على أحسن ما يكون النهوض الأستاذ هنريكو دي أغسطيني الذي كان في ذلك الوقت ضابطا كبيرا برتبة عقيد في المكتب السياسيّ العسكريّ لولاية طرابلس الغرب" (هنريكو، 1974، صفحة 11).

كأنّ جبل نفوسة شهد في أواخر القرن التاسع عشر تنظيما إداريّا يسمح، على الأقلّ، بمثل هذا التعداد. ومن ثمّ يكون عمل المستعربين موفّرا لسلطات الاحتلال ما به يضبطون حساباتهم ويقدّرون تحرّكاتهم ويبنون خططهم واستشرافاتهم. وهم، على أيّ حال، تبيّنوا قيمة المنطقة من حيث جغرافيّتها البشريّة تنظيمات وتكتّلات.

والملاحظ أنّ مُتِلَنسكي هذا لم يعرّف بمفهوم العائلة عنده، أهي العائلة الممتدّة أو العائلة النواة. ففي ذلك فرق كبير. والمعلوم أنّ العائلة في المجتمع الإسلاميّ لا سيّما في القرن التاسع عشر، زمن كتابة مُتِلَنسكي نصّه، كان النمط المهيمن فيها هو العائلة الممتدّة التي تجمع بين الجدّ والأبناء والأحفاد. هذا التمييز مهمّ لأنّ من شأنه أن يضاعف العدد 7000 عائلة المذكور آنفا، أضعافا. وعلى كلّ حال يعتبر هذا العدد كبيرا. وهو يسمح باستنتاج له أهمّيّته البالغة في البرهنة على أنّ جبل نفوس قد شهد حضورا مجتمعيّا لافتا كانت له، ولا ريب في ذلك، أبعاده الحضاريّة المتنوّعة. وهذا بعض ما ارتآه مُتِلَنسكي في قيمة هذه الإرشادات، حين قال: "ثمّ إنّ أهمّيّتها جغرافيّا يمكن أن تكون مهمّة بالنسبة إلى المستشرقين الجزائريّين الذين سيتولّون دراسة السجلّات الإباضيّة وترجمتها: في الواقع، مخطوطات **طبقات سير الشيخ أحمد**، وهو **طبقات المشائخ بالمغرب**، المشهور بطبقات الدرجيني، أبو العبّاس أحمد بن سعيد الدرجيني (ت حوالي 670هـ/1271م)، من أعلام نفوسة، و**الجواهر المنتقاة**، لصاحبه البرّادي الجدّ: أبو القاسم ابن إبراهيم البرّادي الدمّري (حيّ في: 810هـ / 1407م) ولد بجبل دمّر في الجنوب التونسيّ، المعروف حاليًّا بجبل الحواية(محفوظ، 1994، 1، ص80)، ومؤلّفات أخرى تاريخيّة، خاصّة بالمذهب، تحتوي تقريبا في كلّ صفحة على أسماء مواضع في جبل نفوس" (Motylinski A. d., Notes historiques sur le Mzab, Alger, 1885, p. 5)

2.2. الممارسات: وهي تلك التي ارتبطت بالمعيش واليوميّ وعبّرت عنها أنواع العلاقات الاجتماعيّة التي تساهم المعلومات المتقدّمة في إغراء الباحثين بفتح مجال بحثيّ منطلقه جغرافيّةُ جبل نفوسة البشريّةُ ومنتهاه التفاعل الثقافيّ في المنطقة. ذلك أنّ دراسة الحضور البشريّ المتحرّك في الزمان والمكان، والنظر في العلاقات المتبادلة بين الناس وأثرهم في البيئة المحيطة بهم، يمكّن من الخروج بفرضيّات بحثيّة وتصوّرات تستند إلى خرائط بشريّة وإحصاءات ودراسات ميدانيّة تخصّ الملامح الثقافيّة المميّزة للمنطقة في العادات والأعراف واللغات والمعتقدات والمعايير الأخلاقيّة. ولهذا قيمته عند المحتلّ عامّة. هذا المحتلّ الذي يعوزه اختراق ألياف مجتمع متجذّر مثل المجتمع النفوسيّ.

1.2.2. ممارسات فصليّة: ينتبه بعض المستعربين إلى طبيعة المعيشة عند النفوسيّين عبر فصول السنة، وتوزيع الأدوار بينهم رجالا ونساء. هذا إضافة إلى طبيعة الثروة النباتيّة والحيوانيّة التي تكفل بقاء العنصر البشريّ

في المنطقة. من ذلك أنّ سكّان جبل نفوسة يغرسون "... شجر التين والكروم بكثرة... لهم بعض النخيل. ويمتلكون البقر والنعاج والمعز؛ يحتمون في الشتاء مع قطعانهم في الكهوف؛ في الربيع يخرجون مع الماشية إلى جفارة والظهر ويتبعون بخيامهم العشب حيث يوجد. وحين يأتي وقت الحصاد تَرجع النساء إلى القصور. أمّا الرجال فيذهبون إلى الحصاد والجزّ وإحضار الشعير" (Motylinski A. d., Le Djebel Nefousa, 1898, p. 111). إنّ الاهتمام الموجّه إلى ثروات نفوسة الطبيعيّة حاضر في كثير من الكتابات الاستعرابيّة. وهذا بعض ممّا جاء في فصل عنونه دوفريي ب**إحصاءات جبل نفوسة: جبال حاضرة طرابلس:** "في قمّة هذا الخطّ وفي منخفضاتها... توجد الغراسات الغنيّة للزياتين وشجر التين والنخيل، وكذلك الأراضي الخصبة التي تجعل من الجبل أحد أهمّ مراكز الإنتاج، إن لم يكن الأوّل في باشليك(pachalik) طرابلس" (Duveyrier, Nouvelles annales des voyages, 1861, p. 130).

إنّ هذه الحركيّة البادية في الجبل خلال فصول الشتاء والربيع والصيف تؤكّد امتلاء المكان بملامح الحياة المخصبة وتوزيع الأدوار الذي يظلّ قائما خلال فصل الخريف أيضا. ف"وحين ينضج التين يذهب الرجال والنساء معا إلى شجر التين ويبقون هناك إلى الخريف. حينها تكون العودة إلى القصور. يذهب الرجال إلى الحرث وتبقى النساء تعدّ مستلزمات الملابس، الحولي والجبّة" (Motylinski A. d., Le Djebel Nefousa, 1898, p. 111). من الجليّ حقّا أنّ النفوسيّين امتلكوا في وقت مبكّر فكرا تنظيميّا ورؤية حياتيّة جديرة بأن يتعرّف عليها الآخر حتّى ينسّب ما هو عليه من اعتداد بالذات يقوّي فيه عداءه لغيره من بلاد الإسلام ويمنعه من نظرة اعتباريّة له.

2.2.2. ممارسات احتفاليّة: من المكوّنات المشهديّة التي شدّت اهتمام المستعربين عند دراستهم لوجوه الحضارة في جبل نفوسة ما كانت تقوم عليه احتفالات الزفاف خاصّة. وقد كان تتبّع جزئيّات مثار دهشة عند متلقّي النصّ الاستعرابيّ. فهذا متلنسكي يجمع مشاهداته تحت عنوان: **عرس عند سكّان الجبل،** ليقول: "يُبتدأ الخميس مع شروق الشمس. يُؤتى بجمال عليها شباك للذهاب إلى الحطب" (Motylinski A. d., Le Djebel Nefousa, 1898, p. 111). إنّ للاحتفال ملامحه العامّة والخاصّة، الخارجيّة والداخليّة. فالانطلاق للاحتطاب حدث مميّز بخروج الجمال لتعود محمّلة بشباك الحطب. ثمّ يعقب ذلك مشهد النسوة وهنّ يمارسن أنشطة متنوّعة لتهيئة الطعام. يقول: "تأتي النساء. وتحمل الشعير الذي يقلينه. ويشرعن في الرحي... تقوم بعضهنّ للغربلة والبعض الآخر لوضع الأواني على النار..." (Motylinski A. d., Le Djebel Nefousa, 1898, pp. 111-112). أمّا الأكل فله

نظامه الخاصّ. إذ "يأكل الرجال أوّلا والنساء بعدهم". يبدو هذا متعلّقا بأهل العرس. أمّا الضيوف فموعدهم المساء. يقول في الموضع نفسه: "وفي المساء يأتي وجهاء الحيّ... يدعى أهل القصر للطعام حتّى غروب الشمس".

ومن تجلّيات الاحتفال العناية بالطرب الذي يعقب الوليمة. يقول: "ثمّ يؤتى بالزنوج ليقدّموا موسيقاهم... يجتمع أطفال كلّ أحياء القصر حولهم...". نسجّل هنا تخصيص الزنوج بالوظيفة الطربيّة، دون إشارة إلى امتلاك النفوسيّين لتراث غنائيّ أو آلات عزف أو ميل إلى الطرب وما إلى ذلك. من البيّن أنّ بحث متلنسكي في هذا الغرض لم يبلغ حدّ التقصّي في مثل هذه الجزئيّات المهمّة.

إضافة إلى الأنشطة المتعلّقة بالطعام والطرب ثمّة ما يخصّ العروس. إذ "تحيط الفتيات بالمخطوبة ويتّجهن نحو بئر لغسل متعلّقاتهنّ إلى منتصف النهار. يلحق بهنّ الناس هناك مع الغنم والزنوج ويعودوا بهنّ في احتفالات شعبيّة... في الليل تُحنّى المخطوبة وكذلك الفتيات... ويأتي المغنّون..." (Motylinski A. d., Le Djebel Nefousa, 1898, p. 112). أمّا الوليمة الكبرى التي تمثّل مهرجانا تلغى فيه الفوارق العرقيّة فتكون يوم الجمعة حدثا سابقا لخروج هودج العروس. ف"يوم الجمعة منذ شروق الشمس يُطعم الجميع، البربر والعرب، البيض والسود، كسكسا ولحما. عند العصر يؤتى بجمل عليه توضع الجحفة وتُزيّن بأقمشة جميلة وفيها تدخل المخطوبة". ترسم هذه الممارسات الاحتفاليّة لوحة مشرقة ينشر فيها أهل نفوسة ألوان الجمال والعطاء والسماحة. إنّ المستعرب، وهو يتعرّف على مثل هذه الممارسات الاحتفاليّة معاينة أو خبرا يدرك متانة الروابط في نفوسة اجتماعيّا، ويعلم يقينا قوّة الحضور النفوسيّ حضاريّا.

3.2. الاعتقادات: ما توفّرت عليه المدوّنة الاستعرابيّة بخصوص جبل نفوسة من جهة المعتقد، يرتكز، أساسا، على الانتماء المذهبيّ الإباضيّ، مع إشارات مقتضبة إلى التمذهب المالكيّ.

إنّ عناية متلنسكي بالمسألة الإباضيّة دفعته إلى البحث في مراكز الوجود الإباضيّ تاريخيّا وجغرافيّا. ولمّا كانت تحرّكاته في الجزائر غربا وشرقا منذ نعومة أظفاره، فقد "ولد في معسكر وتوفّي في قسنطينة" (Pouillon, 2012, p. 753)، كان لا بدّ أن يكون ذا خبرة بالبيئة الجزائريّة التي ستتجذّر الإباضيّة في أجزاء منها. لكنّه، رغم ذلك، يظلّ مسكونا بالرغبة في البحث عن الجذور المغذّية للإباضيّة إلى عصره. يقول: "... ولكنّ النواة الإباضيّة الأهمّ في إفريقيا الشماليّة توجد اليوم في طرابلس الغرب، بجبل نفوس. سوف ندرك أهمّيّة هذه المجموعة التي عرفت كيف تحافظ على معتقداتها في بلد خاضع لسلطة سنّيّة(orthodoxe) غير متسامحة، غالبا" (Motylinski A. d., Notes historiques sur le Mzab, Alger, 1885, p. 2). نتجاوز هنا هذه الإشارة إلى وجود الوجود الإباضيّ في بيئة سنّيّة، لنوجّه الاهتمام جهة خصائص الجبل الجغرافيّة ودورها في المحافظة على الخصوصيّة

المذهبيّة. ف"النفوسيّون يسكنون في الأصل، بين الساحل الغربيّ لطرابلس ومنطقة الجبل... وليس من شكّ في أنّ القسم الأكبر من السكّان الذين يقطنون هذا الجبل وينطقون البربريّة القديمة ويعتنقون المذهب الإباضيّ هم من أصل نفوسيّ" (هنريكو، 1974، صفحة 27).

إنّ الصلة بين توزّع السكّان في جبل نفوسة والمسائل الدينيّة متينة. وقد ازدادت متانة وقوّة بفضل المشترك المذهبيّ بين النفوسيّين وإخوتهم في تونس والجزائر. وهذا ما لاحظه متلنسكي حين قال: "يشكّل سكّان جبل نفوسة، كذلك، من وجهة نظر دينيّة، مجموعتين: العرب ينتمون إلى المذهب المالكيّ. بينما البربر، وحدهم في إفريقيا الشماليّة، مع بني مزاب وسكّان جزيرة جربة، حافظوا على البدعة(l'hérésie) الإباضيّة... هذه المجموعة الاعتقاديّة ساهمت في الحفاظ على علاقات بين إباضيّي طرابلس الغرب وإخوتهم في الدين بمزاب" (Motylinski A. d., Le Djebel Nefousa, 1898, p. IV). بل إنّ دلائل الروابط بينهم ماثلة في حركة علميّة منطلقها نفوسة. إذ "مازال بعض الطلبة الشبّان يأتون من نفوسة لدراسة الكتب في بني يزقن وغرداية حيث توجد عقائد الفرقة مطوَّرة". هذا الرابط المذهبيّ الجامع بين الجبل والجزيرة ومزاب أقرّه دوفريي هو الآخر بقوله: "إن أهل جربة "في مستوى الرؤية الدينيّة، يؤمن هذا الشعب الصغير بمعتقدات فرقة إسلاميّة إباضيّة، التي هي ذاتها بالنسبة إلى بني مزاب والنفوسيّين"(Duveyrier, La Tunisie, 1881, p. 133)

(Duveyrier, 1881, p.133).إنّ دور جبل نفوسة في نشر المذهب الإباضيّ ونصرته لا يخفى على ذي بصيرة. ف"هذا الدين كما قال الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم، انتصر بسيوف نفوسة وثروات مزاطة" (Motylinski A. d., Le Djebel Nefousa, 1898, p. V). فالجبل نهض بدور مهمّ في تجذير التوجّه الإباضيّ وترسيخ عراه عبر الزمن. وما من شكّ في أنّ المشهدين السياسيّ والعلميّ قد وقّرا ما يؤكّد هذا الرأي.

3. المشهد السياسيّ: يتفرّع البحث في هذا المشهد إلى عنصرين هي: الإمامة والمبادئ.

1.3. الإمامة: توفّرت الكتابات الاستعرابيّة على هذا المصطلح الجامع في دلالته بين الوظيفة الدينيّة والوظيفة السياسيّة. نتناول الإمامة هنا من خلال رصد المستعرب،المشتغل في العربيّة لغة وأدبا وحضارة، المستمزغ، المشتغل في الأمازيغيّة لغة وأدبا وحضارة، المشتغل في الأمازيغيّة لغة وأدبا وحضارة، ريني باصي(Basset, René) لخارطة أئمّة نفوسة، ولباصي رصْد لحركة الأئمّة السياسيّة التي كان للنفوسيّين فيها حضور لافت. وقد ابتدأ بذكر أبي الخطّاب الذي خلف إسماعيل بن زياد النفوسيّ الملقّب ب"إمام دفاع" والمبايع من لدن النفوسيّين إماما عليهم. تتواتر الأحداث التي شهدتها إمامة أبي الخطّاب، وهو عبد الأعلى بن السمح المعافريّ، زعيم إباضيّة إفريقيّة. قال فيه الشمّاخي: "وخلصت طرابلس وإفريقيّة لأبي الخطّاب وانبسط العدل في الناس حتّى قال شيخ من

أهل القيروان يخاطب أصحابه تشبّهون دينكم بدين أبي الخطّاب وأين مثل أبي الخطّاب في فضله وعدله وإقام حدود الله وإحياء سيرة العدل بعد أن أماتها الأئمّة الجورة وقهر الجبابرة..." (الشمّاخي، 1412هـ/1992م، صفحة 118).

1.1.3. الإمامة في طرابلس الغرب

- **إمامة أبي الخطّاب**(141-144هـ/758-761م): أغفل باصي التعريف بالأئمّة بما يناسب خصالهم العلميّة والأخلاقيّة وفضائلهم في توفير مشهد حضاريّ فرض أهمّ قيم التعايش الكونيّة ألا وهي العدل. ولكنّه لم يغفل عن ذكر جملة أحداث وقعت في عصره مثل استيلائه على القيروان في صفر 141هـ، نشير هنا إلى أنّ التشابه في الأسماء بين قيروان الجبل الأخضر بليبيا المسمّاة اليوم بشحات، وقيروان تونس، عاصمة الدولة الأغلبيّة(184هـ-296/800م-909) قد يوقع في الالتباس، وقد عقب استيلاءه ذاك انتصاره على حاكم مصر محمّد بن الأشعث في مغمداس عام142هـ ثمّ مقتله عام 144هـ، في تاورغا من طرف ابن الأشعث.

- **إمامة أبي حاتم الملزوزي**(144-155هـ/761-771م): تزامن استيلاء الإباضيّين على طرابلس مع تأسيس تيهرت على يد عبد الرحمان بن رستم. وكانت مؤازرة عبد الرحمان بن رستم له. ثمّ كانت محاصرة عمر في طبنة، فمحاصرة القيروان ومقتل عمر ... ثمّ كان انتصار أبي حاتم في مغمداس على طليعة يزيد عام 155هـ قبيل مقتل أبي حاتم في "جنبي" (روني، 2004، صفحة 8). وقد لحق هذا اعتلاء عبد الرحمان بن رستم إماما(160-168هـ/776-784م). ما يمكن الاحتفاظ به هنا هو التعاون بين ممثّل الإمامة في طرابلس الغرب ونظيره في تيهرت إضافة إلى السمة العامّة للوضع عصرئذ، وهي الاضطراب والقلاقل السياسيّة مثل الحصار والقتل. وسيكون لهذا أثره البيّن في الحركة العلميّة وانحسارها في فترات معيّنة. ثمّ كان حدث انتصاب السمح بن أبي الخطّاب حاكما لنفوسة وطرابلس.

2.1.3. الإمامة في تاهرت: يسجّل باصي نقلة نوعيّة في مسألة الإمامة تتمثّل في انتقال الإمامة إلى رستميّي تاهرت. وتعيين ولاة يحكمون نفوسة بأمر الرستميّين. فهم بذلك موالون لهم. وقد تزامن هذا مع تسمية عبد الوهاب إماما عام 168هـ/784م. ومن الجليّ أنّ هذه النقلة أحدثت تغييرا في خارطة المنطقة من جهة وفي توسعة الحركة الإباضيّة مذهبيّا وعلميّا. ولنا أن نتساءل ها هنا عن طبيعة العلاقة بين الإمامة الرستميّة في تاهرت وأنصارها من أهل نفوسة.

- **التواصل:** يؤكّد باصي استمرار التواصل بين جبل نفوسة والدولة الرستميّة. وقد تمثّل ذلك في بعث النفوسيّين مساعدات إلى الإمام. ثمّ، ومن الجهة المقابلة، كانت إقامة الإمام سبع سنوات في إيجناون بجبل

نفوسة (روني، 2004، صفحة 9). وهذا الحدث مهمّ ومثير في آن واحد. ما الأسباب التي دعته إلى ذلك؟ وكيف يترك الإمام مقرّه في تاهرت كلّ هذه الفترة؟ ألا يُخشى من حدوث التمرّد بعده؟ وقد اقتصر باصي على ذكر جملة من الأحداث تمثّلت في تزامن هذا مع عقد اتّفاقيّة سلام بين عبد الوهاب ورواح(171هـ/787م) وانشقاق في صفوف النكّاريّين ومحاولة اغتيال الإمام ونشوب اضطرابات وقلاقل في تيهرت وحروب الواصليّين والمعتزلة ضدّ الإمام. ولعلّ من إمكانات التأويل أن تكون استضافة نفوسة للإمام هذه المدّة الطويلة بهدف حمايته من الأخطار المحدقة به.

– **المشاركة:** في القيام ببعض الأعمال وفي الوضع الساري عند النفوسيّين ونظرائهم في تاهرت. ففي 196هـ استولى الهوّاريّون وأهل نفوسة على طرابلس تحت قيادة إياد بن وهاب. لكن سرعان ما أخذها منهم أبو العبّاس عبد الله. وقد تزامن هذا الحدث مع محاصرة عبد الوهّاب لطرابلس(196هـ/811م) وعقد اتّفاق بينه وبين أبي العبّاس. وقد انتخب أهل نفوسة، بعد وفاة السمح، ابنه. والإمام وحده هو الذي رفض خلافته. تزامن هذا مع اغتيال ميمون ابن الإمام من قبل النكّاريّين. ثمّ كان مقتل خلف في إيدرف على يد أبي عبيدة الذي انسحب إلى تُمْتي. وقد تزامن مع هذا الحدث حصول أفلح بن عبد الوهاب الذي حكم 60 سنة حسب أبي زكريّاء و50 سنة حسب ابن الصغير، على الإمامة(208–250هـ/823–864م). وقد وقعت أشكال من الاضطرابات مثل إحراق أفلح للعباسيّة التي أسّسها أبو العبّاس قرب تيهرت(239هـ/853م)، وسفارة ابن عرفة من قبل أفلح، إلى السودان، ثمّ تدبير أبي بكر بن أفلح لاغتيال بن عرفة وهو ما كان سببا في حرب أهليّة بتاهرت، أسفرت عن إزاحة أبي بكر عن الحكم وتنصيب أنصاره أخاه حاكما عليهم.

– **المؤازرة:** شهدت المنطقة انقساما شأن الإمامة بين كلّ من أبي اليقظان محمّد بن أفلح، ومحمّد بن مسالة الذي زعم الإمامة له بمؤازرة من أهل هوارة. أمّا اللواتيّون والنفوسيّون فآزروا أبا اليقظان. فقامت حرب أهليّة دامت سبع سنوات استولى فيها ابن مسالة على تيهرت وأخذها منه بعد ذلك أبو اليقظان" (روني، 2004، صفحة 10). وتشهد المنطقة سلسلة من الصراعات انتهت بسقوط الدولة الرستميّة عام 296هـ/908م، بعد عودة يعقوب بن أفلح إلى الحكم، وقضاء الداي عبد الله على حكم آل رستم بتاهرت. ممّا لا شكّ فيه أنّ هذه الشبكة من الأحداث المتقاطعة مثّلت زمن كتابة نصّ باصي هذا موردا مهمّا يستقي منه المستعربون ومن وراءهم من حكومات احتلال ومغرضين متربّصين ببلاد الإسلام عموما والغرب الإسلاميّ خصوصا والمغرب الإسلاميّ بصفة أخصّ. إنّها مادّة علميّة تمكّنهم من فهم المجتمع وبنيته العقليّة والتعرّف على أحواله السياسيّة وقدراته المادّيّة وتتيح لهم، من ثمّ، التسلّل في ألياف المجتمع والتوغّل فيه. وهي إلى جانب ذلك، تمثّل، اليوم، مادّة علميّة لأبحاث قيّمة توفّر نتائج

مهمّة في قراءة المشهد الحضاريّ النفوسيّ من وجهة نظر سياسيّة. إنّها مادّة علميّة تمّ ترحيلها إلى الآخر فثمّنها وفتح بها مجاهل كثيرة.

2.3. المبادئ: يقف الناظر في المدوّنة الاستعرابيّة المختصّة بالإباضيّة وما يتّصل بها في مختلف المجالات، لا سيّما المجال السياسيّ، على جملة من المبادئ التي يمكن تصنيفها أربعة:

1.2.3. الصنف الأوّل: ما يتعلّق بالأئمّة رأسا باعتبارهم رأس السلطة. وقد قادنا البحث في هذه المدوّنة إلى ثلاثة مبادئ:

– **مبدأ مساندة الأئمّة:** يشير مسكراي إلى ذلك بقوله: "يروى أنّه كان مع يزيد بن حاتم رجل من نفوسة يسمّى عمر بن متكوب النفوسيّ" (Abou Zakaria, 1879, p. 47). ثمّ يورد مثالا أكثر تفصيلا لمساندة النفوسيّين لأئمّة المذهب عامّة، والرستميّين خاصّة. فيقول: "كان أبو اليقظان القادم من الشرق يستعدّ سرّا لتولّيه العرش... سرعان ما التفّت حوله مجموعة معتبرة من النفوسيّين الذين ظلّوا دائما داعمين للسلالة الرستميّة" (Saghir, 1907, p. 111).

– **مبدأ تعظيم الإمام:** يقول متلنسكيّ: "وكانت نفوسة الجبل مفتونة بأبي اليقظان حتّى إنّها أقامته في دينها وتحليلها وتحريمها مثل ما أقامت النصارى عيسى بن مريم وكان أكثرهم لا يحجّ إلّا باستئذانه" (Saghir, 1907, p. 111).

– **مبدأ الإخلاص للأئمّة:** يقول مسكراي: "يظهر النفوسيّون دائما إخلاصا للأئمّة الإباضيّين..." (Abou Zakaria, 1879, p. 47). ولكنّه لا يذكر ما يترتّب على ذلك الإخلاص من موالاة وعلاقات.

2.2.3. الصنف الثاني: ما يرتبط بردّ العدى وإباء الضيم والظلم دفاعا عن النفس.

– **مبدأ ردّ العدى دفاعا عن النفس:** يقول متلنسكي ساردا أحداث بعض الوقائع الحربيّة التي نهضت فيها بدور المدافع عن حقّه المستردّ لما سلب منه: "فلمّا كان اليوم الثاني وقعت الحرب بجوار درب النفوسيّين. وغلبت العرب والجند على ذلك الموضع... واستولت على الدرب وكان أكثره للعجم وبعضه لنفوسة، وأضرمت الدرب نارا. فغضبت نفوسة عند ذلك وقالت: وقفنا عند حربهم وأحرقوا ديارنا... فبعد ذلك حميت نفوسة وصارت كلمتها وكلمة العجم واحدة وجبذوا إلى أنفسهم أبا اليقظان... اشتدّت الحرب على العرب... وكانت بينهم وقائع كلّها للعجم ونفوسة... منها وقعة تعرف بقنطرة الدمتس ومنها وقعة تعرف بقنطرة سليس..." (Saghir, 1907, p. 111)

ومن المعلوم أنّ خوض الحروب يقتضي خبرة واستعدادا وتخطيطا. ومن ذلك مبدأ التحصّن بالقلعة: يقول متلنسكي: "وصار العجم ونفوسة والرستميّون موضعا واحدا في العدوة المعروفة بعدوة نفوسة. فبنوا قلعتهم فيها" (Saghir, 1907, p. 101). ثمّ يردف قائلا: "وأمّا نفوسة فنزلت بقلعة مانعة يقال لها اليوم قلعة نفوسة".

3.2.3. الصنف الثالث: وهو موصول بإغاثة المضطرّ ونجدته: إنّ النفوسيّين أهل نجدة. ومن علامات ذلك استنجاد أبي اليقظان بهم حين ضيّقت عليه الحرب. يقول متلنسكي: "وأنّ أبا اليقظان لمّا رأى من طول الحرب ما رأى كتب إلى جبل نفوسة يستفزّهم" (Saghir, 1907, p. 104). وكذلك استنجاد الإمام عبد الوهاب بهم. فلمّا أدرك أنّ الحرب ضدّ الواصليّة شديدة "طلب من أهل نفوسة أن يرسلوا إليه كتيبة مختارة تضمّ رجلا عالما بالعلوم التي تسمح بالردّ على المنشقّين، ورجلا عالما بتأويل القرآن، ورجلا شجاعا وقويّا قادرا على مواجهة الواصليّ... تشاور النفوسيّون... واتّفقوا على أن يرسلوا له أربعة رجال أوّلهم المهدي والثاني أيّوب بن عبّاس، والثالث محمّد بن لانيس(lânis)... الرابع يقال إنّه يسمّى أبا محمّد" (Abou Zakaria, 1879, pp. 85-88).

هذا الشاهد مهمّ لما يتضمّنه من تفصيل يخصّ طبيعة الكتيبة المطلوبة. يتّضح من خلال معرفة مكوّناتها أنّ النجدة مثلما تكون برجال الحرب تكون كذلك برجال العلم والحكمة. ذلك أنّ جمع الكلمة لا يتحقّق بالسيف وإنّما بالمعرفة والعظة والإقناع. وفي هذا يندرج مبدأ استشارة أهل العلم والخبرة: "وإنّ أبا اليقظان لمّا استقام له ملكه أتته وفود نفوسة من الجبل المعروف بجبل نفوسة ليقدم عليهم أميرا من أنفسهم. فأنزلهم في دار الضيافة... "

(Saghir, 1907, p. 112). إنّ تاريخ نفوسة، في هذه الجزئيّة الفريدة من نوعها يقدّم شهادته على العصر. إذ يعلّم الإنسانيّة بعض مسالك السلم والنصر والعزّة.

4. المشهد العلميّ:

يتضمّن ثلاث مسائل متواشجة: العلماء والمصنّفات والأخلاق.

1.4. العلماء

1.1.4. نماذج من العلماء: من الأعلام الذين تواتر ذكرهم في الكتابات الاستعرابيّة مقترنا بالأعمال المنجزة في مصنّفاتهم من تحقيق وترجمة وشرح وتعليق وفهرسة، إضافة إلى الدرجينيّ والشمّاخيّ والبرّاديّ:

- أبو زكرياء(ت: 471 أو بعد 474هـ / 1078 أو بعد 1081م).. وقد جاء التعريف به ضمن الطبقة العاشرة من **طبقات الدرجيني**، تحت عنوان: أبو زكريّاء يحيى وأخوه زكريّاء (الدرجيني، 1974، صفحة 448)، "أبو زكريّاء يحيى بن أبي بكر بن سعيد اليهراسني الوارجلاني". وقد ذاع صيته عندهم بفضل كتابه **السير** (عمّي، 1421هـ/2000م، الصفحات 451-453). ولعلّ قيمة عمل مسكراي تكمن في أنّه وفّر للمستعربين اللاحقين به

مادّة علميّة تستجيب لطموحهم في دراسة الإباضيّة. فقد انبثقت الدراسات مباشرة بعد ترجمة مسكراي هذا كتاب **سير الأئمّة وأخبارهم** لأبي زكريّاء يحيى بن أبي بكر الوارجلانيّ ونشرِه عام 1878.

- أبو نصر فتح بن نوح كان حيّا إلى منتصف القرن السابع الهجريّ الثالث عشر الميلاديّ. أخبر عنه متلنسكي. فقال: "أبو نصر بن فتح بن نوح، من تملوشايت، قصر النفوسيّين، تتلمذ على عمّه أبي يحيى زكريّا بن براهيم بن زكريّا بن أبي هارون البارونيّ المشهور في حوليّات الفرقة الإباضيّة بعلمه وبقداسته. درس أبو ناصر اللغة العربيّة بعمق (الشمّاخي، 1412هـ/1992م، الصفحات 189-190)، ونظم الشعر..." (Motylinski A. d., Le Djebel Nefousa, 1898, p. 103). ولعلّ ما شدّ انتباه دوتّي في هذا العلم هو توظيفه الشعر والمتون لصياغة قضايا علميّة وعقديّة في جملة ما نظم من قصائد مثل البائيّة والحائيّة والداليّة والرائيّة والنونيّة.

2.1.4. منزلة العلماء: وقد تمثّلت خاصّة في أخلاقهم وفي جهودهم في خدمة المذهب وفي استشارتهم.

وممّا جاء في أخلاقهم تأكيد خصلة الورع. وهي خصلة جامعة لكثير من الفضائل. ينقل مسكراي ترجمة عن أبي زكريّاء قصّة أحد علماء نفوسة. فيقول: "حين غادروا الجبل طلب محمّد بن لانيس من رفاقه أن يكون خادمهم. رفضوا بداية ثمّ وافقوا لإلحاحه الشديد... وعند التخييم اهتمّ... بالخيل... بالطعام...وحين ناموا شرع في الصلاة... إلى الفجر. كان يصوم نهارا ويستيقظ ليلا... صلّى ركعتين... قرأ في الأولى نصف القرآن وفي الثانية نصفه الآخر وما انتهى إلّا مع الفجر" (Abou Zakaria, 1879, pp. 90-91). وعن الورع في طلب المناصب يذكر استشارة أهل الحكمة. فقد "كتب أهل نفوسة إلى الإمام(عبد الوهاب)... ينعون إليه حاكمهم ومطالبين بتعيين خليفة له... أمرهم الإمام بتكليفه(أبو عبيدة عبد الحميد)بالسلطة العليا في جبل نفوس... أجاب أبو عبيدة... : "أنا ضعيف، أنا ضعيف، أنا غير قادر على حكم المسلمين... (بعد إعلام الإمام برفض أبي عبيدة التكليف)... أرسل إليهم ثانية "... الرجل الوحيد الجدير بقيادة المسلمين هو الذي يعترف بضعفه... قال لهم أبو عبيدة: "انتظروا حتّى أستشير امرأة عجوزا... فعلا قصد عجوزا مشهورة بعلمها ومعارفها السياسيّة وشدّة أحكامها" (Abou Zakaria, 1879, pp. 45-48). وهذا النوع من القصص الاعتباريّة لها قيمتها في المشاريع الإصلاحيّة مهما تنوّعت مجالاتها.

وقد يحضر توصيف هنا أو هناك مثل: " وكان حكمه عادلا وعدله مثاليّا" (Abou Zakaria, 1879, p. 149)، و"أمّا أبو زكريّا... فكان ورعه وعباداته جليّة". وقد يتّخذ التوصيف صيغة المماثلة. ومن ذلك هذا القول في منزلة أبي زكريّاء العلميّة: "أراد أحد إخوتنا من الشرق زيارة... جبل نفوس... ثمّ زار الإمام في تاهرت... وسأله الناس عن جبل نفوسة. فأجاب: "الجبل هو أبو زكريّا وأبو زكريّا هو الجبل" (Abou Zakaria, 1879, p.

(149. ولا شكّ في أنّ اطّلاع المستعربين على هذا النوع من المقوّمات الطرازيّة البانية للشخصيّة سيمثّل لهم رافدا نادرا في علوم التربية وعلوم النفس والاجتماع.

تتّضح منزلة العلماء عند النفوسيّين، كذلك، في نشر المبادئ الإباضيّة وإغناء المجال المعرفيّ. يقول: "بدأ سكّان وادي مزاب المعتزليّون اعتناق العقيدة الإباضيّة عن طريق الشهير أبي عبد الله محمّد بن بكر السائح(هكذا) المتوفّى في 440هـ. هذا الشيخ المبجّل قائد روحيّ معترف به من قبل أغلبيّة إباضيّي وادي ريغ... ومن هناك جاء مرارا يعلّم بني مزاب العقيدة الوهبيّة" (Abou Zakaria, 1879, p. 150). وحول نواة المعتنقين الأولى، تجمّع، في ما بعد، إباضيّةُ قصور ورقلة ووادي ريغ ونفّوسة والجريد، المطرودون من مراكزهم للاضطهاد الدينيّ أو الاقتتالات الداخليّة" (Motylinski A. d., Notes historiques sur le Mzab, Alger, 1885, pp. 13-14). وتتّضح منزلة العلماء كذلك في استشارة الإمام لهم واسترفاده بحكمتهم وطاعتهم فيما يرونه صائبا: يروى أنّ الإمام عبد الوهاب حين عزم على الحجّ، وعند وصوله جبل نفوسة "...التفّ حوله مجمع النفوسيّين. وقالوا له: يا أمير المؤمنين نحن لا نقرّ هذا السفر... قرّر الإمام استشارة بعض الشخصيّات الذائعة الصيت، في هذا القرن، كرامة وعلما وإخلاصا، أبي عمر والربيع بن حبيب... وابن عابد... واستجاب لقرار الربيع..." (Abou Zakaria, 1879, pp. 121-126). وبقي في جبل نفوس سبعة أعوام، كما يقال، يعلّم الناس تطبيقات خاصّة بالصلاة ومختلف مسائل العقيدة" (Abou Zakaria, 1879, p. 126). وكان يريد بواسطة توحيد كلّ المسلمين المطيعين له في ضواحي طرابلس وجبل نفوس والجبال المحيطة التي يشغلها البربر... وضع اليد على مدينة طرابلس". ومن الاستشارات الطريفة ما اتّصل باختيار الزوج: "يروى أنّ المهدي كان طلب يد امرأة في جبل نفوسة. فذهبت المرأة لاستشارة أحد الشيوخ النفوسيّين. أجابها: "المهدي يعبد الله ويخشاه باستمرار... المهدي رجل ورع. حرث إحدى أراضيه وفوق الحقل المحروث هناك سدود كثيرة مهدّمة إلى حدّ أنّه لا يمكن إصلاحها إلّا بقبيلة كاملة... أخشى ألّا يصلحها إلّا بالتراب الذي ستحملينه على رأسك..." عادت المرأة وتزوّجت المهدي... " (Abou Zakaria, 1879, pp. 118-119). ومن هنا يتّضح لنا أنّ للعلماء عند أهل نفوسة منزلة جليلة. إذ إليهم يُرجع بالنظر في مسائل تخصّ مؤسّسات المجتمع من مؤسّسة الإمامة إلى مؤسّسة الأسرة. وهذا مهمّ في الدلالة على النضج المعرفيّ والوعي الدينيّ.

وقد انتبه المستعرب دوتّي إدمون (Doutté, Edmond)(1867-1926) إلى انتشار العلم عند نساء نفوسة حيث اشتهرت عالمات نفوسيّات. يقول: "هناك في المجتمعات البربريّة الإباضيّة بجبل نفوس، عدد كبير من النساء اللواتي لمعن بعلمهنّ وورعهنّ: ضريح الكثير منهنّ مازال إلى اليوم مكانا للحجّ. نجد سلسلة من الأمثلة في مذكّرة

ريني باصّي حول مزارات جبل نفوسة. إحداهنّ كانت سوداء اعتنقت الإسلام بمجرّد سماع القرآن يُتلى" (Doutté, 1900, p. 89). وما كان من المجريّ إقناك ڤولدزهير (Goldziher, Ignác)(1850-1921)، إلّا أن يثمّن، في مقاله: **مساهمات جديدة في مقدّسات الإسلام**، ما كتبه ريني باصّي عن هذه المزارات: "نؤكّد هنا أهمّيّة مذكّراته حول مزارات جبل نفوسة في معرفة الدين الشعبيّ في هذا الجزء من إفريقيا" (Goldziher, 1902, pp. 1-2). فهو يثمّن ما كتبه باصّي لكونه "يتّصل بحقبة من أهمّ حقب تاريخ الإسلام في شمال إفريقيا، وذلك مهمّ جدّا بالنسبة إلى المؤرّخ لمعرفة الوسط الطوبوغرافيّ والإتنوقرافي، حيث تكوّن أبطالٌ أسماؤُهم تطبع مرحلة من التاريخ" (Goldziher, 1902, p. 2).

3.1.4. العلاقات العلميّة: يقيّم متلنسكي جبل نفوسة تقييما علميّا ويثمّن دوره في ربط الصلات العلميّة لمنزلته الرفيعة بين أهل المذهب خاصّة. يقول: "هذا الجبل المُتْرَع بالذكريات الجليلة والأساطير الدينيّة، مازال معتبرا عند بني مزاب مثل منطقة مقدّسة. إنّه عندهم دائما قوّة الإباضيّة في إفريقيا. وقد احتفظت لنا السِيَرُ الإباضيّة بتفاصيل كثيرة حول نفوسة من شأنها أن تسمح بإعادة تشكيل التاريخ السياسيّ والدينيّ والحميميّ لهذه القبيلة البربريّة العظيمة" (Motylinski A. d., Le Djebel Nefousa, 1898, p. V). غير أنّ ممارسات الاحتلال الفرنسيّ القمعيّة في كلّ من الجزائر(مزاب وغرداية...) وتونس(الجريد وجربة) والاحتلال الإيطاليّ في ليبيا (جبل نفّوسة) حالت دون ربط صلات علميّة بين أقطاب المذهب الإباضيّ وتطويرها ومن فسح المجال أمام نموذج لتنظيم متعدّد الأبعاد بشّر به هذا المذهب. ومهما يكن من أمر تلك الممارسات والمضايقات فإنّ الصلات العلميّة بين نفوسة والحضور الإباضيّ الشرقيّ في عمان خاصّة والحضور الغربيّ في تونس والجزائر ظلّ قائما لرسوخه في التاريخ. وقد مثّل الحجّ سبيلا لتحقيق "التواصل بين الإباضيّة، إضافة إلى ما يكون من سفر إلى عمان بعد أداء فريضة الحجّ "جبل نفوس وجزيرة جربة، هذان المركزان القريبان من واد ميزاب حتّى لا ينقطع تبادل الرسائل والكتب بينهم" (Abou Zakaria, 1879, p. 65). هذه الروابط العلميّة أكّدها كذلك المستعرب دوتّي حين قال: "توجد في إفريقيا الشماليّة مجموعات من السكّان البربر التي بقيت خالصة. فهم ليسوا بسنّيّين. إنّهم الإباضيّة؛ منهم في مزاب... ومازالت هناك مجموعة في جبل نفوسة بطرابلس الغرب. لهم علاقات بإخوانهم في عمان وزنجبار، ويشتركون معهم في الأفكار" (Doutté, 1900, p. 9).

2.4. المصنّفات:

1.2.4. المشغل الاستعرابيّ: ونعني به نزوع هؤلاء الباحثين الدؤوب إلى الحفر والتنقيب بغية الاطّلاع على مصنّفات النفوسيّين. فمتلنسكيّ، مثلا، لم يكن، وهو يسعترض بشكل مفصّل، القبائل التي سكنت القرارة وبعض مدن

صحراء الجزائر أو جنوب تونس أو جبل نفّوسة، غافلا عن قيمة ذلك في ضبط الحركة الإباضيّة وتحديد تحرّكات علمائها وصلاتهم العلميّة. ولا ريب في أنّ هذا المستعرب الذي كان شغوفا بمعرفة هذا المذهب، وحيازة مخطوطاته، وتثمين جهود أعلامه، لا ريب في أنّه كان ذا هدف مخصوص. ألم يقل: "تمكّنت... من فحص متمهّل للمخطوطات... وإعداد فهرسة للمصنّفات الخاصّة بالفرقة الإباضيّة، أي تلك التي دوّنها إباضيّو عُمان والجريد وجبل نفّوسة وجربة ووادي ريغ وورقلة ومزاب"(Motylinski A. d., 1885, p. 15) . يتأكّد هذا التوجّه حين نعلم أنّ متلنسكي هذا كان قد طرح المسألة في مستوى مؤتمر المستشرقين، وأنّ محاضرته الطويلة حول الإباضيّة نشرت ضمن فعاليّات ذلك المؤتمر الرابع عشر المنعقد بالجزائر عام 1905 (Saghir, 1907, pp. 3–132).

2.2.4. عيّنات من الكتب:

– كتاب أبي زكريّاء الموسوم ب **سير الأئمّة وأخبارهم**، والمعروف **بتاريخ أبي زكريّاء**، فقد تعاور على نقله إلى الفرنسيّة ، إضافة إلى المستعربين: مسكراي(Masqueray) ولو تورنو(LeTourneau)، جان أوغست بُسّوترو(Bossoutrot Jean Auguste)، وهو عمل غير منشور. وما كان ذلك ليكون لولا قيمة الكتاب العلميّة. وقد ورد في كتاب **السير**: "وبعد مرور ما يقرب من قرن على ظهور ترجمة مسكراي لكتاب السير، قام المؤرّخ المستعرب المعروف، لو تورنو(R. Le Tourneau)، في سنة 1960، (Tourneau, 1960, pp. 99–172) بمحاولة لإعادة ترجمة الكتاب" (زكريّاء، 1402هـ/1982، الصفحات 30–31). يكتسي هذا الكتاب أهمّيته من جهة محتوياته الضخمة. إذ يوفّر كتاب **السير** إرشادات تكميليّة حول مؤلّفات هذه الشخصيّة الورعة. "إنّه مؤلّف مصنّفات بديعة" أحيت المذهب. سنذكر هنا: 1. كتاب حول قواعد الإسلام... 2. القناطر، في مجلّدات كثيرة... إنّه موسوعة دينيّة وأخلاقيّة... 3. كتاب في الحساب وقسم الفرائض... 5. أجوبة الأئمّة... 6. ما جمع من الرسائل... 7. كتاب الحجّ والمناسك..." (Motylinski A. d., Le Djebel Nefousa, 1898, p. 94). ويذهب مسكراي إلى أنّ مدّخرات نفوسة من الكتب كبيرة. يقول: "مانزال الإباضيّة اليوم في جبل نفوسة على مسافة ثلاثة أيّام جنوب طرابلس. ومازال النفوسيّون، ربّما، يمتلكون كتبا أكثر من بني مزاب" (Abou Zakaria, 1879, p. 47).

– كتاب **قواعد الإسلام**: "كتاب الشيخ أبي طاهر إسماعيل بن موسى، من جيطال(جبل نفوس)، الموسوم ب**قواعد الإسلام**، الذي هو القانون الدينيّ الأكمل للمذهب، يقدّم التفاصيل المكمّلة التالية حول احتفاليّة الجلسات: "على أعضاء المجلس، منذ وصولهم، الجلوس في شكل حلقة دون ترك فراغ بينهم" (Motylinski A. d., Notes historiques sur le Mzab, Alger, 1885, p. 28).

– كتاب **مسائل نفوسة الجبل:** يقول متلنسكي: "وكان لعبد الوهاب كتاب معروف بـ**كتاب مسائل نفوسة الجبل** لأنّ نفوسة كتبت إليه في مسائل أشكلت عليها. فأجابها عن كلّ مسألة ممّا سألت عنه. وكان هذا الكتاب في أيدي الإباضيّة مشهورا عندهم معلوما يتداولونه قرنا بعد قرن..." (Saghir, 1907, p. 74).

– **منظومات أبي نصر:** جاء على لسان متلنسكي ما يلي: "ونظم أبو نصر بن فتح بن نوح "دواوين شعر كثيرة: النونيّة، قصيدة نونيّة حول مبادئ الدين شرحها الشيخ أبو طاهر إسماعيل بن موسى الجيطالي صاحب **قناطر الخيرات في أصول الدين**، و**قواعد الإسلام**، ورائيّة حول الصلاة لم تشرح، قصيدة نونيّة أخرى لدحض حجج أنصار خلق القرآن، وقطع أخرى تحوي نصائح ومواعظ. عاش أبو ناصر أواخر القرن السادس الهجريّ" (Motylinski A. d., Le Djebel Nefousa, 1898, p. 103).

– **كتاب ابن الصغيّر:** وابن الصغير هذا ليس من الإباضيّة ولكنّه كتب في الدولة الرستميّة. وتبدو قيمة هذا الكتاب من وجهة نظر استعرابيّة لا في ترجمته فحسب، بل في رقمنته أيضا. إذ ما يزال الاهتمام بهذا الموروث قائما، لأنّ إصدار نسخة رقميّة لكتاب ابن الصغير في عصر العولمة له دلالة عميقة (Saghir, 1907, p. 2).

3.2.4. قيمة المصادر الإباضيّة: ما يعنينا هنا هو قيمتها الوظيفيّة بالنسبة إلى المستشرقين لا من وجهة نظر جغرافيّة بشريّة ومكانيّة، فحسب، فقد اقتبس من **الجواهر المنتقاة** معلومات دقيقة تفيد في تقديم إحصاء للعائلات الإباضيّة في مديريّات جبل نفوّسة. وقد تقدّم ذلك وبيان أهمّيّته في الدراسات الاستشرافيّة من جهة معرفة الخارطة السكّانيّة وأشكال تنظيمها، وإنّما من جهة الإفادة منها في "دراسة السير الإباضيّة أو ترجمتها" (Motylinski A. d., Notes historiques sur le Mzab, Alger, 1885, p. 5).

وقد ثمّن متلنسكي هذه المصادر لاحتوائها خاصّة على معلومات تخصّ جبل نفوسة. فقال: "تحتوي النصوص المخطوطة للطبقات وسير الشيخ أحمد والجواهر المنتقاة ومصنّفات تاريخيّة أخرى خاصّة بالفرقة، في كلّ صفحة تقريبا، على أسماء جهات من جبل نفّوسة..." (Motylinski A. d., Notes historiques sur le Mzab, Alger, 1885, p. 5). إنّ متلقّي هذا النصّ الاستعرابيّ يمكنه أن يدرك من خلاله طبيعة الأوضاع التي كان يتحرّك فيها العلماء الإباضيّون، وتداعياتها العاجلة والآجلة في العلاقات التي يمكن أن تنشأ بين هؤلاء ومن ستربطهم بهم صلات اجتماعيّة أو اقتصاديّة أو سياسيّة.

5. الخاتمة: خلاصات واستنتاجات وتوصيات

1.5. خلاصات: في ثلاث

– مثّل جبل نفوسة في الدراسات الاستعرابيّة معطى حضاريّا ضخما. وقد تناوله الباحثون بالدرس والتمحيص. ومتحوا منه المعارف الغزيرة في مستويات التنظيم والتأسيس والتفكير والتسيير. وقد أقرّوا بأعمالهم تلك حظَّ جبل نفوسة العظيمَ من الشهادة على العصر.

– أولى هؤلاء المستعربون عناية خاصّة بالمستوى العلميّ. فهبّوا إلى مدّخرات المعرفة من مخطوطات نادرة ومجلّدات ثمينة، عند النفوسيّين وإخوانهم في المذهب. وتعاوروا عليها تحقيقا ونشرا، شرحا وتعليقا. فكان لهم دور في ترحيل المعرفة إلى الآخر والتعريف بالجبل وتاريخه والكشف عن ثرواته المادّيّة والفكريّة ورصد المسالك والتحرّكات.

– لم يخف كلّ من اطّلع من المستعربين على الإرث الحضاريّ النفوسيّ، الصعوبات التي واجهوها بسبب انغلاق المجتمع النفوسيّ في وجه الغريب رغم انفتاح داخليّ على غير أهل المذهب. وصرّحوا بتمكّنهم من بعض الاختراقات التي وظّفوها في ما كلّفوا به من لدن الاحتلال.

2.5. استنتاجات: في ثلاث

– ما توصّل إليه هؤلاء هو نتاج دراساتهم وما بلغته إدراكاتهم واجتهاداتهم الفرديّة وتوقّعاتهم وافتراضاتهم الموصولة في الغالب بمرجعيّاتهم الخاصّة فهي، رغم ذلك، تبقى محاولات تساعد في قراءة الأوضاع والأحوال دون أن ترتقي إلى مرتبة التوثيق العلميّ الكامل. لذلك الحاجة إلى مراجعتها ماسّة.

– إنّ الاطّلاع على هذه الدراسات يؤكّد قيامها على شبكة أعمال يأخذ فيها اللاحق عن السابق ويبني عليه في تنافس لا يشوبه تقزيم جهود الآخرين ولا الصراع معهم. وهو تنافس بلغ بالبعض حدّ التخصّص في المدوّنة الإباضيّة.

– أبرز المستعربون أهمّيّة انبناء المجتمع النفوسيّ على المؤسّسات الاجتماعيّة: الأسرة والتنظيمات الفرعيّة التي وصلت حدّ تقسيم العمل، وكذلك المؤسّسات العلميّة والتعليميّة المتجلّيّة في حركة الطلبة والعلماء، والمؤسّسات السياسيّة الممثّلة عصرئذ في الإمامة.

3.5. توصيات: في ثلاث

– دلّت هذه الأعمال على تغليب المصلحة العامّة عند أهل نفوسة تحقيقا للتعايش السلميّ. وهذا ما ينبغي توجيه البحث العلميّ إليه اليوم والدعوة إلى تجريبه من خلال التجسير العلميّ بين الجامعات.

– ضرورة استعادة الصلات العلميّة بين المشرق والمغرب وبناء حركة علميّة تحفظ الهويّة وتدعو إلى المشترك الإنسانيّ، في عصر مهدّد بإقصاء المختلف وإلغائه.

– تحويل هذه المدّخرات المعرفيّة إلى قاعدة بيانات تساهم في تطوير الدراسات الأكاديميّة في شتّى المجالات الحيويّة لا سيّما الدراسات الإناسيّة.

قائمة المراجع العربيّة:

1. أحمد بن سعيد الشمّاخي. (1412هـ/1992م). *الشمّاخي،، كتاب السير*. سلطنة عمان: وزارة التراث القوميّ والثقافة.
2. أحمد بن سعيد، الدرجيني. (1974). *طبقات المشائخ بالمغرب*. قسنطينة–الجزائر: مطبعة البعث.
3. بابا عمّي. (1421هـ/2000م). *معجم أعلام الإباضيّة من القرن الأوّل الهجريّ إلى العصر الحاضر قسم المغرب الإسلاميّ* . لبنان: دار الغرب الإسلاميّ.
4. باصي، روني. (2004). *تسمية مشاهد جبل نفوسة: دراسة في وثيقة مجهولة المؤلّف* . ليبيا: منشورات مؤسّسة تاوالت الثقافيّة سلسلة بحوث تاريخيّة.
5. دي أغسطيني، هنريكو. (1974). *سكّان ليبيا*. ليبيا: الدار العربيّة للكتاب.
6. يحيى بن أبي بكر، أبو زكريّاء. (1402هـ/1982). *سير الأئمّة وأخبارهم المعروف بتاريخ أبي زكريّاء*. بيروت–لبنان: دار الغرب الإسلاميّ.

قائمة المراجع الأجنبيّة:

1. Abou Zakaria, y. (1879). *Chronique d'Abou Zakaria*. Alger: Imprimerie de L'Association" Ouvrière, P. Fontana et Cie.
2. dfgf. (fgf). *gdf*. fdg: dfg.
3. Doutté, E. (1900). Notes sur l'islâm magribin : les marabouts. *la Revue de l'Histoire des Religions* , 79-91.
4. Duveyrier, H. (1881). *La Tunisie*. Paris: Imprimerie Émile Martinet.

5. Duveyrier, H. (1861). *Nouvelles annales des voyages.* Paris: dir: Eyriès, J. B. et Malte-Brun, Tome 3, Volume 171, Sixième série.
6. Goldziher, I. (1902). Nouvelles contributions à l'hagiologie de l'Islam. *Revue de l'Islam* , 1-17.
7. Motylinski, A. d. (1885). *Notes historiques sur le Mzab, Alger.* Alger: Adolphe Jourdan, Libraire-Editeur, Imprimeur-Libraire de l'Academie.
8. Motylinski, A. d. (1885). *Bibliographie du Mzab : Les Livres De La Secte Abadhite.* Alger: Imprimerie de L'Association" Ouvr.
9. Motylinski, A. d. (1898). *Le Djebel Nefousa.* Paris: Angers-Imprimerie A. Burdin.
10. Pouillon, F. (2012). *Dictionnaire des orientalistes de langue française.* Paris: Iismm –Karthala.
11. Saghir, I. (1907). *Chronique sur les Imams Rostemides de Tahert.* Paris: E. Leroux.
12. Tourneau, L. (1960). La Chronique d'Abû Zakariyyâ al-Wargalâni(m.471 H. =1078 J.C.). *Revue Afrique* , 99-172.